

عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م)

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، أبو الوليد أمير المؤمنين ولد في المدينة عام ٢٦هـ / ٦٤٧ م في خلافة عثمان بن عفان، وأمهم عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية نشأ نشأة علمية حفظ القرآن الكريم وقرأ العلوم الدينية من الفقه والتفسير والحديث على مشيخة الحجازيين في المدينة، وروى الحديث عنهم، كما روى عن أبيه، وعن معاوية بن أبي سفيان، وعن أم المؤمنين أم سلمة، وعن بريرة مولاة عائشة، وروى عنه جماعة من التابعين كان عبد الملك يكثر من مجالسة العلماء، ولقب بـ حمامة المسجد بفعل ملازمته له ولمداومته تلاوة القرآن والأخبار متواترة على فقهه وغازاة علمه ورجاحة عقله، وتكاد المصادر تجمع على أنه كان خلال حياته الأولى، متديناً جداً ولعاً بالدراسات الدينية، لا يختلف في تدينه ولا ينازع في ورعه هذه الخلفية الدينية يجب تقييم سياسته بعد أن أضحى خليفة، وإن كانت ظروف الخلافة قد أجبرته في بعض الأحيان على التصرف تبعاً لما يمليه الموقف السياسي، الذي يبدو أحياناً متناقضاً. مثله الدينية، ومع ذلك فيجب أن لا لذلك ومن يبالي في هذا الحقيقة أن عبد الملك قضى معظم حياته قبل أن يلي الخلافة، في المدينة ينهل من علم فقهاؤها، ولم يكن يغادرها إلا للحج أو للغزو .

ولما ذهب والده إلى مصر بعد معركة مرج راهط، تركه في دمشق يحكمها كتائب عنه، وبويع له بالخلافة في اليوم نفسه الذي توفي فيه والده من شهر رمضان عام ٦٥هـ / شهر نيسان عام ٦٨٥ م) ، وهكذا ولي عبد الملك الخلافة في وقت كان العالم الإسلامي يسوده الاضطراب، حتى أشرفت شمس الدولة الأموية على الزوال، فانتشلها من الفوضى وأقام صرحها على أسس متينة لم يسبقه إليها من جاء قبله من الخلفاء، حتى اعتبر بحق المؤسس الثاني لدولة الخلافة الأموية.

الأوضاع السياسية في مستهل عهد عبد الملك :

وبقالات في مستهل عهد عبد الملك أربع فئات إسلامية كانت تتنازع السيطرة على فئة الأمويين الذين يسيطرون على الشام ومصر.

عبد الله بن الزبير وكان يسيطر على الحجاز والعراق. جماعة الشيعة في العراق، وقد كادت تقوم لهم قائمة بزعامة المختار بن أبيعبيد الثقفي .

جماعة الخوارج .

ودلالة على هذا الانقسام في العالم الإسلامي، فقد ارتفعت في موسم الحج في عام (٦٨ هـ) أربعة ألوية :

لواء عبد الملك بن مروان.

لواء محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية .

لواء نجدة بن عامر زعيم خوارج اليمامة.

لواء عبد الله بن الزبير

بالإضافة إلى ذلك فقد واجه عبد الملك محاولات يائسة من داخل البيت الأموي للسيطرة على الحكم. إزاء هذا الواقع، كان لا بد للخليفة من أن يتعامل مع هذا الموقف الشاذ. وقد اثبت مروان بن الحكم كفاءة عالية، ومقدرة فائقة في إدارة الأزمة، واستطاع بعد جهود مضنية، أن يصفي خصومه الواحد تلو الآخر بالصبر والأناة والمثابرة مبرهنًا عن نظرته الموضوعية والعميقة لجذور المشكلة خاصة حين أدرك أن هذه القوى لا يربطها هدف مشترك سوى العداء له ولدولته ، بل يسود بينها تناقضات في الأفكار والأهداف، فوضع لنفسه خطة ذكية، وهي ترك هذه القوى تتصارع فيما بينها، وتقضي الواحدة على الأخرى، ومن يبقى منها في النهاية على مسرح الأحداث يكون الوهن قد أنهك قواها فيسهل عندئذ القضاء عليها، وفعلاً أدى تنفيذ هذه الخطة السياسية إلى سيطرة عبد الملك في النهاية، فحكما العالم الإسلامي من دمشق.

الأحداث السياسية الداخلية في عهد عبد الملك

أهم الحركات المعارضة للحكم الأموي

أولاً : المعارضة العلوية

١ - حركة الشيعة في العراق - معركة عين الورد

كان مروان بن الحكم قد جهز قبل وفاته جيشاً بقيادة عبيد الله بن زياد لإخضاع زفر بن الحارث بقرقيسياء في منطقة الجزيرة وعينه أميراً على كل ما يفتحه، فإذا فرغ من الجزيرة توجه إلى العراق لإعادته إلى السيادة الأموية. فلما كان بالجزيرة أتاه نعي مروان، وكتاب عبد الملك يستعمله على ما استعمله عليه والده ويحثه على المسير إلى العراق.

كان العراق الإقليم الأكثر تشنجاً من الأحداث السياسية، فالكوفة، وهي مركز المعارضة السياسية، كان الحزب الشيعي فيها يجتاز أزمة التقصير والشعور بالذنب بعد مأساة كربلاء، واضطر أهل الكوفة إلى الإخلاء إلى الهدوء طيلة حكم عبيد الله بن زياد حيث الأجواء السياسية لم تكن مشجعة

لأية مبادرة ضد النظام بعد تنفيذ إجراءات الملاحقة و قبضة الحكم الأموي الحديدية مما أنزل الرعب في قلوبهم .

ولكن عندما عم الاضطراب أنحاء البلاد بعد موت يزيد وفرار عبيد الله بن زياد، شرع أنصار الحسين يتصلون ببعضهم البعض بهدف وضع خطة للثأر لدمه. إذ بعد استشهادهم هزتهم الفاجعة وندموا على تقاعسهم عن نصرته والدفاع عنه، معترفين بخطيئتهم بحماسة شديدة، لذلك لم يجدوا وسيلة يكفرون بها عن هذا التقصير ويتوبون إلى الله بها من هذا الذنب الكبير سوى الثأر للحسين وأخذ الشيعة يعقدون الاجتماعات برئاسة سليمان بن صرد الخزاعي، لدراسة الموقف، وأسلوب العمل الذي سيتبعونه وغلب على هذه الاجتماعات موضوع التوبة والغفران. وقد عبر زعيم الحركة أنه لا يغسل عنهم ذلك الجرم إلا قتل من قتله أو القتل فيه وغلب عليهم اسم التوابين وكان شعارهم الثأر للحسين.

وتحسنت فرص التحرك الفعلي للتوابين حين تبدل المناخ السياسي في أعقاب انضمام البصرة والكوفة إلى حركة ابن الزبير فانصرفوا إلى تعبئة الأنصار في المدينتين المذكورتين بالإضافة إلى المدائن وإلى جمع الأسلحة، ومن ثم حددوا موعد التحرك، وكانت النخيلة المعسكر الذي تجمعوا فيه لاستقطاب المتطوعين من حق الحسين "

وقد رفض سليمان بن صرد عرضاً من عبد الله بن يزيد الأنصاري عامل ابن الزبير على الكوفة يقضي بإمداده بقوة عسكرية مساعدة كما رفض أتباعه فكرة اتحادهم مع ابن الزبير، ويبدو أن مرد هذا الرفض هو اعتقادهم أن هذا الأخير استولى على الخلافة التي وخرج التوابون من معسكرهم في النخيلة في الخامس من شهر ربيع الآخر عام ٦٥هـ/ شهر تشرين الثاني عام ٦٨٤م (وهو الموعد الذي حددوه لخروجهم). وكانت المحطة الأولى في مسيرتهم الانتقامية في كربلاء حيث بلغوا قبر الحسين فاسترحموا عليه وبكوا وتابوا عن خذلانهم له وبعد يوم وليلة من البكاء كان الحماس قد أخذ منهم حتى العمق، فقررروا السير إلى الشام لقتال عبيد الله بن زياد باعتباره الرجل الذي أصدر الأمر بقتل الحسين، لأنهم وجدوا أنه الطريق الأجدى لتحقيق الانتقام) ومر جيش التوابين ببلدة هيت على الفرات ثم صعد مع النهر إلى أن وصل إلقرقيسياء، وكانت هذه المدينة هي اسمياً ببيعة ابن الزبير أبعد المناطق في هذا الاتجاه التي اعترفت ولو استقبل أمير قرقيسياء زفر بن الحارث الكلابي جيش، التوابين بحماسة خاصة وأنه قد جمعت الفريقين مصلحة مشتركة هي مقاتلة الأمويين. واقترح زفر عليهم توحيد صفوفهم مع أنصار ابن الزبير، إلا أنهم اعتذروا عن قبول اقتراحه، كما رفضوا نصيحته بالعدول عن قرارهم الانتحاري، واكتفوا بالتزود بما يحتاجون إليه من المدينة ثم مضوا إلى مصيرهم .

والتقى التوابون بالجيش الأموي في عين الوردية من أرض الجزيرة إلى الشمال الغربي من صفين في عام ٦٥ هـ / ٦٨٥ م ، وخاضوا ضده معركة ضارية غير متكافئة بفعل قلة عددهم بالمقارنة مع عدد أفراد الجيش الأموي، أسفرت عن تدميرهم ومقتل زعمائهم باستثناء رفاعة بن شداد الذي تراجع بالبقية القليلة منهم إلى الكوفة.

وهكذا انتهت حركة التوابين وهي في الواقع من الحركات الطائشة التي دفع بها الحماس إلى عدم التبصر، ولقيت هزيمة منكرة، ولم يكن لها من نتائج سوى المزيد من إراقة الدماء وتعميق الكراهية بين أهل العراق ودولة الخلافة الأموية .

ويلاحظ في هذه الحركة أمران الأول: أنها وصفت بالتشيع واعتبرها المؤرخون نقطة تحول جديدة في تطور الحزب الشيعي، إلا أنها لم تدع إلى إمامة أحد من آل البيت. الثاني: أنها كانت فاتحة عمل ما يزال أساسياً حتى الآن في الممارسات الشيعية، وهو زيارة قبر الحسين والترحم عليه، وهذا يعني مرحلة أخرى من مراحل تحول الحركة الشيعية من حركة سياسية محضة إلى حركة دينية سياسية.

ب – حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي:

تبعث حركة التوابين حركة أخرى تنسب إلى المختار بن أبي عبيد الثقفي وتعرف بالمختارية. تميزت هذه الحركة بمناهضتها للحكم الأموي ورفع شعار التشيع العلوي. كما ساهمت إلى حد كبير في تطور الشيعة كفرقة دينية وسياسية، فحددت الكثير من اتجاهاتها. كما كان لها تأثير هام في التاريخ الاجتماعي والسياسي للفترة الأموية خاصة، وللتاريخ الإسلامي عامة حيث أفادت حركات أخرى معارضة كالدعوة العباسية .

ظهر المختار في ميدان السياسة في عام ٦٤ هـ / ٦٨٤ م . واتصف بالطموح السياسي، وأبرز ملامحه خاصتان: الاتجاه الشيعي (٢) ونزعة السلطة (٣)، وهو أول زعيم في الكوفة التقى مسلم بن عقيل واختار هذا الأخير منزله كمقر له ، كما قام بدور هام في التعبئة الشعبية فيها عشية خروج الحسين إليها، مما دفع الوالي إلى سجنه، ثم أطلقه بعد استشهاد الحسين وأمره بمغادرة الكوفة (4) . فتوجه إلى مكة حيث اتصل بابن الزبير، ونشق معه ضد الأمويين على أساس شروط ثلاثة هي :

ان لا يقضي امرا دونه

أن يكون أول من يأذن له .

إذا ظهر استعان به على أفضل عماله (١).

والراجح أن هذا التنسيق جاء نتيجة استغلال حاجة ابن الزبير لمساندة قوى إسلامية أخرى في صراعه مع الأمويين، ليحصل المختار على ما يريد من منصب سياسي. لكن ابن الزبير كان قليل الثقة بالمختار بفعل تقلباته السياسية، ومن جهته فإن المختار لم يكن . مستعداً بأن يثق به أكثر . ذلك، فتباعد الرجلان وعاد المختار إلى الكوفة مقتنعاً نفسه بأنها الأرضية المناسبة لتحقيق آماله السلطوية . من

وصل المختار إلى الكوفة يوم الجمعة في الخامس والعشرين من شهر رمضان عام ٦٤ هـ / شهر نيسان عام ٦٨٤ م) (٢) في ظل نشاط محمود للثأر للحسين. فاستغل ٦٨٤ م حركة التوابين لنيل أغراضه ضد ابن الزبير والأمويين، رغم أنه لم يكن هناك مجال للتنسيق بينه وبينهم بفعل اختلاف الاتجاهات السياسية، مع الأخذ بعين الاعتبار وحدة الشعور بين الطرفين.

ومن جهة أخرى، وجد المختار في سليمان بن صرد منافساً قوياً له، فراح يعمل على تفريق الشيعة عنه بتأكيده أنه أرسل إليهم من قبل المهدي ابن الحنفية (٣). فانقسم الشيعة إلى قسمين قسم مع سليمان يريد الخروج للثأر للحسين، وقسم آخر يريد الخروج للدعوة إلى إمامة محمد بن الحنفية (1) مما أثر سلباً على قدرات التوابين العسكرية .

وفي الوقت الذي خرج فيه التوابون إلى عين الوردية، كان المختار، مرة أخرى، وراء قضبان السجن يفعل نشاطه المعادي لابن الزبير وتعيد الفرصة نفسها، ويغادر السجن بعد تدخل صهره، وأشرف الكوفة (1) .

وانتهز خلو الساحة السياسية من الزعامات الشعبية، فتحرك بتخطيط جديد. فيحكم نشأته في العراق، فإنه كان على اطلاع على أوضاع الكوفة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية . فمن الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية، فقد كان هناك تمايز بين العرب الموالي من جهة، وبين العرب أنفسهم من جهة أخرى. فنشأت، نتيجة هذه السياسة التي نفذها بعض خلفاء بني أمية وولاتهم، فئة اجتماعية محرومة من الامتيازات، تقسم

الضعفاء الذين نظروا إلى محمد بن الحنفية كمنقذ لهم، فاهتم بهذه الفئة بهدف استقطابها، وادعى أن المهدي ابن الوصي محمد بن علي أرسله إليهم أميناً ووزيراً

القتال الملحددين والطلب بدماء أهل بيته والدفاع عن الضعفاء (٢). والواقع أن المختار كان أول من أدرك وحاول أن يعالج التمايز القائم في الحقوق الاجتماعية والاقتصادية بين فئات المجتمع خدمة المصالحه، فتبنى مطالب الفئات الضعيفة بتحقيق المساواة مع الأشراف .

أما من الناحية السياسية، فقد أدرك مدى عمق الصراعات بين العرب أنفسهم، بين الذين شاركوا في الفتوحات الأولى، وبين الذين هاجروا فيما بعد، بالإضافة إلى الصراعات القبلية، فسعى لاستغلال هذه الأوضاع ورأى أن مصلحته تكمن في التحالف مع القبائل اليمنية لاسيما قبيلة النخ وزعيمها إبراهيم بن الأستر، فاستماله إلى جانبه (٣).

أما من الناحية الدينية، فقد اتسمت حركته بمحتواها الديني العقدي، فنأى بفكرة المهديّة في شخص محمد بن الحنفية، فأطلق عليه لقب «المهدي»، كما استخدم فكرة البداء التي مكنته من تغيير آرائه من حين إلى آخر وأضفى على نفسه جلاله دينية، فبات كمن يعلم الغيب، أو يأتيه الوحي من السماء (١).

وتمكن، أخيراً، من ضم بقايا التوابين والموالي، وبعض القبائل اليمنية وأضحى الزعيم الوحيد الذي يعترف به شيعة الكوفة (. وبعد أن تهيأت ظروف التحرك، ووجدت الأرضية الصالحة، استولى المختار على الحكم في الكوفة، بعد أن هزم جيش الوالي عبد الله بن مطيع الذي اتصف بالجهل السياسي، فغادر هذا مقره واختفى عن الأنظار.

وصعد المختار المنبر في الكوفة، وأعلن برنامجه على الناس (4) . ثم راح يرسل الولاة إلى إمارات أرمينيا وأذربيجان والموصل والجلال ليحكموا باسمه ويبدو أن متاعب المختار الجدية برزت بعد السيطرة على الكوفة، ذلك أن حركته لم تحمل في طياتها عوامل الاستمرارية، وأن الاحتفاظ بالسلطة كان مصحوباً بأخطار داخلية وخارجية (1) .

٧/٢٢٥ الداخل، كان التلاحم الشيعي وراءه مرحلياً ومصطنعاً، خاصة وأنه فشل في التوفيق بين الشيعة المعتدلين والشيعة الغلاة كما أن غالبية أهل الكوفة، من غير الشيعة الذين واجههم بشدة كانوا يملكون القدرة المعنوية والمادية لإثارة المشاكل

ضد حكمه. أما الأشراف العرب، فإنهم لم يثقوا به منذ البداية، وشكوا في ولاته للقضية العلوية، فطاردتهم حتى اضطروهم للخروج إلى البصرة، محتمين بمصعب بن الزبير، كما فقد تأييد ابن الأستر الذي كان ينتمي إلى طبقة الأشراف، فتركه ولحق بهم. والواقع أن المختار قد تخلى مؤقتاً، بعد وصوله إلى الحكم عن عزمه على قتل قتلة الحسين وعمل على تحقيق الاستقرار السياسي الداخلي من خلال التوفيق بين الأشراف والضعفاء وذلك ليواجه أعداءه في الخارج في اتجاهين

متباعدين. فقد كان جيش الشام بقيادة عبيد الله بن زياد يتقدم باتجاه الموصل، وفي الوقت نفسه كان مهدداً من قبل ابن الزبير في البصرة والحجاز

وقد قوّض هذا العمل الهيكل الاجتماعي الذي كانت تستند عليه سيطرة الأشراف. ولم يكن بإمكانه أن يرضي فريقاً إلا على حساب الفريق الآخر، والراجح أن الظروف السياسية آنذاك هي التي حددت اختياره في التزام جانب الضعفاء. وفي الخارج، كان يتربص بالمختار خطران، خطر ابن الزبير الذي لا يزال يملك القوة الرئيسية في العراق، وخطر الجيش الأموي الذي كان يزحف باتجاه العراق. وحتى يتفرغ لجيش الشام، حاول المختار حصر ابن الزبير في الحجاز بالاستيلاء على البصرة، إلا أنه فشل في ذلك، كما اضطرت الفرقة العسكرية التي أرسلها للتصدي لعبيد الله بن زياد في الموصل، من الانسحاب رغم انتصارها في المعركة (٢).

ترتب على هذا الانسحاب قيام انتفاضة ضد حكمه داخل الكوفة تزعمها الأشراف، إلا أنه قمعها بسرعة، ثم استغل الوضع السياسي للثار من قتل الحسين وقد حقق المختار بهذا التصرف هدفين :
(٣)

الأول: أنه بر بوعده، ولو بعد حين بالثأر للحسين .

الثاني: أنه أنزل العقاب بأولئك الأشراف الذين خرجوا على حكمه بعد أن ذهب سدى جميع محاولاتهم لتفاهم معهم

وقد نتج عن هذه الحملة أمران: الأول: أن عشرة آلاف من الأشراف والقادة العرب من غير الشيعة، استطاعوا الهرب إلى البصرة والتجأوا إلى مصعب بن الزبير (1) . وقد أدى هؤلاء دوراً بارزاً في تحريضه ضد المختار.

الثاني: أنه زاد من شعبيته بين الشيعة وكسب رضا محمد بن الحنفية.

ثم حدث أن أرسل المختار، بعد الانتهاء من أحداث الكوفة، جيشاً، آخر بقيادة إبراهيم بن الأشتر لوقف زحف الجيش الأموي المتجه نحو العراق. ونجح هذا القائد الانتصار عليه في معركة جرت عند نهر الخازر في العاشر من شهر محرم عام ٦٧ هـ شهر تموز عام (٦٨٦م و قتل عبيد الله بن زياد في المعركة مع الحصين بن من نمير

تعاضم نفوذ المختار بعد هذا الانتصار وسيطر على شمالي العراق والجزيرة وبدا كما لو أنه أقام دولة خاصة في العراق بين دولتي ابن الزبير في الحجاز وعبد الملك في الشام، لكنه لم ينعم طويلاً بهذا النجاح بفعل أن حركته قد شكلت تهديداً لحركة الأول ولسلطة الثاني، وكان لا بد لأحدهما من

أن يقضي عليه . ومن جهته، رأى المختار أن يسيطر على كامل العراق، ويتوسع على حساب القوتين معاً، فأعد جيشاً لانتزاع البصرة من يد مصعب . في هذا الوقت، انفض قائد إبراهيم بن الأشرع عنه ولحق بالأشراف في البصرة مما جرده من معظم ما ملكه من طاقات عسكرية، فأثر ذلك سلباً على وضعه القتالي حيث أصيب بخسارة فادحة في معركة المذار مع جيش مصعب، في (منتصف عام ٦٧ هـ/ أوائل عام ٦٨٧ م) (٣) ولم يتمكن من الصمود داخل الكوفة بعد أن شدد مصعب الحصار عليه، فخاض معركة غير متكافئة انتهت بمقتله واستيلاء مصعب على الكوفة وهكذا انتهت هذه الحركة التي كان شغل صاحبها الشاغل الوصول إلى السلطة بأية وسيلة، ولم تنفعه ادعاءاته بحب آل البيت والمطالبة بالتأثر لهم. إذ سرعان ما انكشفت نياته وتخلي عنه أهل العراق.

ثانياً : حركة ابن الزبير الذي زوال المختار من الميدان السياسي إلى انحصار المنافسة على زعامة العالم الإسلامي بين عبد الملك وعبد الله بن الزبير . ويبدو أن الأول لم يكن قادراً على التصدي للزبيريين في العراق والأقاليم الشرقية نظراً لتعرضه لبعض المشاكل الداخلية والخارجية التي تطلب حلها جهوداً خاصة. كان الوضع الداخلي الهاجس الرئيس للخليفة الأموي، حيث كان البيت الأموي لا يزال منطوياً على بعض خلافاته، وتحاك فيه المؤامرات. ويبدو أن عبد الملك عندما اتخذ قراره بالتصدي لابن الزبير وجد نفسه مضطراً لمعالجة بروز عمرو بن سعيد بن العاص كمنافس له على الزعامة الأموية، وقد نجح في القضاء عليه وأعاد اللحمة إلى البيت الأموي (1) . كما أنهى مشاكله بالحكمة مع حاكم قرقيسياء زفر بن الحارث ، ونجح في التخلص من نائل بن قيس الجذامي حاكم فلسطين المؤيد لابن الزبير أما الوضع الخارجي، فقد انتهجت الإمبراطورية البيزنطية في عام (٧٠ هـ/ ٦٨٩ م) سياسة أشد نشاطاً وفاعلية على حدود الثغور الإسلامية منتهزة فرصة حدوث الاضطرابات داخل الصف الإسلامي، فاضطر عبد الملك أن يعقد معاهدة مع الإمبراطور جستنيان الثاني لضمان هدوء هذه الجبهة، مقابل دفع ضريبة مالية (٣). وبذلك يكون عبد الملك، قد مختلف المشاكل لصالحه وأضحى نظامه من القوة ما يكفي للمراهنة على صعوبة إسقاطه من جهة، والقضاء على حركة ابن الزبير من جهة أخرى .. وأدرك الخليفة الأموي أن قوة ابن الزبير تكمن في العراق، وأن القضاء عليه في هذا الإقليم سيؤدي حكماً إلى إسقاط النظام الزبيرى بكامله لأن عوامل الصمود في (٢) الحجاز تكون قد فقدت الكثير من دعائمها، لذلك خرج على رأس جيش كبير إلى جسم العراق، في حين تحرك مصعب من الكوفة باتجاه الشمال للتصدي له . وانتهج عبد الملك، في غضون ذلك، خطة ذكية الإضعاف قوة خصمه، فكتب زعماء العراق في جيشه يستميلهم للانضمام إليه، كما كاتبه هؤلاء يدعونه إليهم. وقد علم مصعب بهذه المراسلات

إلا أنه لم يتخذ بحقهم أي إجراء. ويبدو أنه لم يشأ إحداث شرخ في صفوفه، وهو على أهبة الاستعداد لدخول معركة. إلا أنه أظهر نفسه قائداً قصير النظر بفعل أن الخيانة أثرت على قوته حين تخلى هؤلاء الزعماء عنه وانضموا إلى خصمه مما كان سبباً من أسباب خسارته. ومهما يكن من أمر، فقد التحم الجيشان على نهر الدجيل عند دير الجائليق بمسكن في (شهر جمادى الآخرة عام ٧٢ هـ) شهر تشرين الأول عام ٦٩١ م لة هـ/ (وأسفر اللقاء بينهما عن انتصار واضح للجيش الأموي وقتل مصعب في المعركة ودخل عبد الملك الكوفة على إثر هذا الانتصار. لم يضع عبد الملك فرصة قطف ثمار انتصاره فقد أسرع بإرسال جيش إلى الحجاز بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي ليوجه إلى عبد الله بن الزبير الضربة القاضية. حاصر الحجاج مكة، وشدد على ابن الزبير الذي أضحى في موقف حرج يفعل انقضاض أتباعه من حوله نتيجة منح الحجاج الأمان لهم. وبالرغم من ذلك، لم تخن عبد الله شجاعته حتى في هذه اللحظة الأخيرة من حياته، واضعاً النهاية لأخطر حركة واجهت الدولة الأموية. وكان ذلك في (السابع عشر من شهر جمادى الأولى عام ٧٣ هـ/ شهر أيلول عام ٦٩٢ م). وبهذا انتهت خلافة عبد الله بن الزبير التي استمرت تسع سنوات تقريباً)) . وبوفاته، وخضوع الحجاز لعبد الملك بن مروان توحد العالم الإسلامي من جديد تحت زعامة هذا الأخير الذي أضحى الخليفة الشرعي الوحيد للمسلمين.

عوامل فشل حركة ابن الزبير

عندما أعلن عبد الله بن الزبير خلافته في شهر رجب عام ٦٤ هـ/ شهر شباط عام ٦٨٤ م كانت عوامل النجاح متوفرة له ، إذ لم يكن للمسلمين آنذاك خليفة، فكانت خلافته شرعية ودعامة قوية لمصلحته، ثم بايعته الأمصار الإسلامية، باستثناء إقليم الأردن، فكان عليه أن يتحرك إلى الشام أو العراق حتى يدعم موقفه، إلا أنه أثار البقاء في مكة مما حرمه من حرية الحركة واعطى خصومه فرصة للتحرك استغلوها بنجاح. نجح عبد الله بن الزبير، في بداية حياته السياسية في استغلال عواطف الفئات المعارضة للأمويين فالتفوا حوله لكن حركته لم تتماش مع تطورات الأحداث السياسية، وبدت في كثير من الأحيان مشابهة لمواقف الأمويين الذين ثار عليهم. تميز ابن الزبير في ثلاثة أمور هي : الشجاعة والعبادة والبلاغة. لكنه اتصفوا القادة بالشخ، مما أثر سلباً على حركته في الوقت الذي كان فيه بنو أمية يوزعون الأموال لاستقطاب زعماء القبائل العسكريين. فاتصرف الناس عنه . كم يبدو أن ابن الزبير رغم مواقع القوة التي استقطبها من خلال كسبه لمعظم القوي المعارضة للأمويين لم يكن من الحنكة السياسية، وبعد النظر بحيث يستفيد من هذه المواقع أو يحتفظ بها. لم يحسن ابن الزبير معاملة بني هاشم، ولم يقدر مكانتهم بين المسلمين فتحامل عليهم وسجنهم ، مما دفع هؤلاء إلى عدم بايعته، فأضعف مركزه. لكنه حظي في الوقت نفسه بثقة الحجازيين،

وكان يأمل في رد الاعتبار لإقليم الحجاز، بعد تفوق إقليم الشام بفعل نقل العاصمة إلى دمشق. يحسن ابن الزبير استغلال الموقف السياسي بالشكل المطلوب وبدا وكأنه ها و ، بحيث جاءت علاقته مع المعارضة فيالعراق تعبر عن قصر نظره في هذا الحقل، وفي فقدان الفرص الكبرى للسيطرة على الحكم. جعل ابن الزبير مقر حكومته في الحجاز، وكان هذا الإقليم، بعد أن انصرفت عنه العناصر السياسية إلى الشام والعراق. ماوى الطبقة الأرستقراطية التي مالت إلى حياة اللهو نظراً لتدفق الثروة عليها . بالإضافة إلى ذلك فإن الحجاز قليل الموارد، ففقد ابن الزبير بذلك الكثير من الطاقات البشرية والاقتصادية المتوفرة في الشام والعراق. فات ابن الزبير التحول الذي أصاب المسلمين والخلافة الأموية من جراء حركة التوسع والانتشار الإسلامي . فإذا هو غير قادر على استيعاب المعطيات الجديدة. اعتمد ابن الزبير، في نشر دعوته، على أنصاره المنتشرين في الأمصار في حين كانت السياسة الصائبة تقضي عليه بأن يتولى ذلك بنفسه، فنتج عن ذلك أن دعوته لم تصل رغم سيطرتها حيناً على معظم أجزاء الدولة الأموية، إلى تحقيق التعبئة المنظمة . أثرت معارضة الشيعة، والخوارج في مرحلة لاحقة، سلبا على قوته بحيث توزعت بين قتال هؤلاء وتعقب أولئك .

ثالثاً :: الخوارج

ظل الخوارج، وهم القوة التي بقيت خارج نطاق التطاحن الدموي، يعارضون الأمويين، لأنهم اعتبروهم مغتصبين للخلافة، كما كان لحالة الاضطراب السياسي التي شهدها العالم الإسلامي، وسياسة الحجاج القاسية في العراق، دور في تشجيعهم على تحدي الحكومة المركزية. وقد ابتكروا نظاماً جديداً في التعبئة العسكرية يعتمد على الحركة السريعة والاحتفاظ بزمام المبادرة مما أعطى حركتهم بعض الاستمرارية. صراعات وكان أول موقف سياسي منظم اتخذه الخوارج هو التحالف مع عبد الله بن الزبير في مكة. ولم يلبث هذا التحالف أن انفرط بعد أن تبين لهم أن ابن الزبير يخالفهم الرأي، فغادروا مكة والقسموا على إثر ذلك إلى عدة فرق نتيجة وقوع صراخية بين صفوفهم، تعود في جوهرها إلى اختلافات سياسية وعقائدية وقبلية في آن واحد، (١) ، لعل أشهرها الأزارقة والصفورية والأباضية

١ - الخوارج الأزارقة

استغل نافع بن الأزرق الأوضاع السياسية المتردية التي كانت تمر بها الخلافة الأموية، فمارس نشاطاً عسكرياً مكثفاً وعنيفاً، واستولى على البصرة، فجبي خراجها وانتشر عماله في السواد. ويبدو أن الجو السياسي العام في البصرة لم يكن مشجعاً على استلامه الحكم بعد اتفاق البصريين

على التصدي له، لذلك اكتفى بإخراج أنصاره من السجون وغادرها إلى الأهواز (١) ، حيث أخذ يصعد منها هجماته العسكرية . وقتل نافع بن الأزرق في إحدى حملاته على البصرة في عام (٦٥) هـ / ٦٨٥ م) فخلفه عبيد الله بن الماحوز. في هذا الوقت عهد ابن الزبير إلى المهلب بن أبي صفرة بقتال الخوارج، وتمكن هذا القائد من إبعادهم عن الأهواز، وقتل ابن الماحوز خلال الاصطدامات وعندما دخل العراق تحت سيادة عبد الملك بعد مقتل مصعب بن الزبير، أضحى من الضروري اتخاذ إجراءات فعالة ومباشرة ضد الأزارقة، خاصة بعد سيطرتهم مجدداً على الأهواز، مشكلين بذلك تهديداً مباشراً للبصرة والمناطق المجاورة لها . ومن جهته، أدرك عبد الملك جسامة الخطر الذي يشكله هؤلاء على الحكم الأموي في العراق، لذلك تفرغ لقتالهم. فعين المهلب بن أبي صفرة لمحاربتهم، بعدما استنابه من العقاب الذي انزله بأعوان ابن الزبير على اعتبار أنه صاحب خبرة في حربهم وأظهر المهلب إخلاصاً في حربه ضد الخوارج، وتمكن، بعد سلسلة طويلة من الاصطدامات معهم استمرت على مدى ثلاث سنوات من القضاء عليهم في منتصف عام (٧٨) هـ / ٦٩٧ م) . وقد ساندته وال صلب هو الحجاج بن يوسف الثقفي

ب - الخوارج الصفرية

في الوقت الذي كان فيه الخوارج الأزارقة يهددون البصرة، كان الخوارج

الصفرية يهددون الكوفة، منطلقين من نواحي الموصل، وتمكنوا اعتباراً من عام (٧٦) هـ / ٦٩٥ م من اجتياح العراق من الموصل حتى الكوفة والمدائن وخانقين بعد أن تغلبوا على الجيوش الأموية التي كانت تتصدى لهم . ويبدو أن قوتهم كانت تفتقر إلى الطاقات الضرورية للمضي إلى أبعد من ذلك، وما كانت ترمي إليه في تلك الفترة هو تحقيق انتصارات سريعة لكن مرحلية تستنزف القوى الأموية . ومن جهتها، فإن الإدارة الأموية سخرت قوى شامية للتصدي لقوة الخوارج الصفرية بعد فشل القوى العراقية في الصمود في وجههم، وقاد الحجاج عمليات التصدي والمطاردة، وتمكن، بعد سلسلة من المعارك من التغلب عليهم، كان آخرها معركة نهر الدجيل في عام (٧٧) هـ / ٦٩٦ م) حيث لم يصمد فيها الخوارج، بقيادة شبيب بن يزيد بن نعيم وانسحبوا عبر جسر من القوارب أقاموه على النهر. وكان شبيب أول المنسحبين ، فغرق وهو يعبر النهر شكل نقطة تحول هامة في حركة الخوارج الصفرية، لأن خليفته البطين لم يكن له الحماس نفسه بالرغم من استمرارية تحديه للدولة، لكن سرعان ما ألقى القبض عليه، وقتل بأمر الحجاج، فطلب الصفرية عندئذ الأمان فمنحوا إياه موت شبيب

ج - خوارج اليمامة

هاجم خوارج اليمامة، بقيادة نجدة بن عامر الحنفي، اعتباراً من عام (٦٥) هـ / ٦٨٥ م) ، البحرين ومناطق أخرى على الشريط الساحلي الشرقي للجزيرة العربية. فاشتدت شوكتهم، وهددوا بشكل مباشر، سلطان ابن الزبير الذي لم يجرؤ على التصدي لهم بسبب ضعفه وبدا نجدة مساوياً في نفوذه لكل من عبد الملك وابن الزبير وعندما دخل العراق في حوزة عبد الملك، تصدى لخطر خوارج اليمامة ، وكانوا بقيادة أبي فديك عبد الله بن ثور فجرده عليهم حملة عسكرية اصطدمت بهم في المشفر في البحرين، دارت الدائرة فيها عليهم ، وقتل أبو فديك واضطر أتباعه إلى التسليم وبهذا الشكل كان سقوط الخوارج النجدية في اليمامة والبحرين بحيث لم تقم لهم بعد ذلك قائمة .

رابعاً: حركة ابن الأشعث

تعتبر حركة ابن الأشعث إحدى أهم الحركات التي قام بها أهل العراق ضد الحكم الأموي، بفعل أنها هزت أسس هذا الحكم وكادت أن تقوضه، ولم يكن نشوبها على أساس مذهبي كما هو الحال في حركات الخوارج والشيعية. والحقيقة أن عبد الرحمن بن الأشعث زعيم قبيلة كندة، وأحد زعماء الكوفة، استغل العداء العميق المتجذر والحقد الدفين الذي يكنه أهل العراق للدولة الأموية، وأشعل هذه الحرب التي كانت إحدى أخطر الحركات التي واجهها عبد الملك بن مروان.. كان الحجاج بعد القضاء على حركات الخوارج في العراق في عام (٧٨) هـ / ٦٩٧ م) ، يعمل على تحجيم المعارضة السياسية، وتشتيت جهودها وبعثرة عناصرها، تفادياً لأي فشل في مهمته الصعبة. ولعل اهتمامه بالفتوحات الخارجية إلى ما وراء جنسان والتعبئة العسكرية الواسعة التي بادر إليها مباشرة بعد تصفية الخوارج ؛ هي نتيجة لهذه السياسة. وكان رتبيل ملك كابل قد هزم جيشاً إسلامياً في عام (٧٩) هـ / ٦٩٨ م بقيادة عبيد الله بن أبي بكر، فأحدثت هذه الكارثة وقعا أليماً في نفس الخليفة الذي كلف واليه على العراق، بإرسال جيش لتأديبه. وفعلاً أعد الحجاج جيشاً ضخماً بالغ في تجهيزه، وعهد بقيادته إلى عبد الرحمن بن الأشعث الذي لم تكن علاقته به جيدة، وقد عينه حاكماً على سجستان وأمره بإخضاع رتبيل تقدم عبد الرحمن بهذا الجيش في عام (٨٠) هـ / ٦٩٩ م باتجاه سجستان وهاجم معاقل رتبيل الذي انسحب من أمامه إلا أنه لم يتمكن من إخضاعه، نظراً لطبيعة المنطقة الجبلية الوعرة، ثم وجد القائد الأموي نفسه و واقعاً في مازق الاختيار بين الاستمرار في التقدم وراء فلول الترك، أو التوقف والاكتفاء بانتصاراته الجزئية المحدودة حتى يتاح للجند التأقلم مع طبيعة البلاد الجبلية، وانتهى إلى قرار بتجميد العمليات العسكرية لمدة سنة والتراجع إلى بست إحدى مدن سجستان، وكتب إلى الحجاج بهذا القرار . لكن الحجاج، بدافع من خلفيات سياسية ضيقة، رفض اقتراح قائده، وجدد له الأمر بالزحف وراء القوات التركية وهدده بالعزل إذا خالف ذلك شعر ابن الأشعث بالإهانة في مخاطبة الحجاج له بهذا الأسلوب، كما أثار أتباعه الذين رأوا

في هذه السياسة مؤامرة أخرى ضدهم للحوول دون عودتهم إلى العراق خاصة أنهم يشكلون شريحة اجتماعية كبرى، من الرأي العام المعارض. فكان الموقف في بست أقرب إلى التشنج واستقر الرأي أخيراً على خلع الحجاج . فبايعوا ابن الأشعث وزحفوا باتجاه العراق . ويبدو أن ابن الأشعث ضرب على الوتر الديني لإثارة الحماس في أتباعه ضد الحجاج، متهماً إياه بأنه غير متدين مما أثار حفيظتهم بدليل أنهم بايعوه على خلع أئمة الضلالة وجهاد الملحدين). وهكذا بدأت هذه الانتفاضة وكأنها نتيجة خلاف ديني مع أن دوافعها الحقيقية تتلخص بما يلي: سياسية بفعل تحجيم المعارضة العراقية شخصية بفعل اختلاف الرؤية في الأمور بين الرجلين . اجتماعية بفعل عدم المساواة بالعطاء بين أهل الشام وأهل العراق وبين العرب والموالي، بالرغم من أن هؤلاء لم يشكلوا فيها قوة ضاغطة خاصة على المستوى القيادي . اعتبرت جماعة ابن الأشعث عرض الخليفة دليل ،ضعف، فرفضوه بكل ازدياد : أن ميزان المعركة لا يزال في اتجاه مصلحتهم، بالرغم من ان ابن الأشعث معتقدين نفسه قبل العرض، إلا أنه نزل على حكم جنده . وأخيراً التقى الجيشان الشامي والعراقي في دير الجماجم ودارت بينهما رحى معركة ضارية في الرابع عشر من شهر جمادى الآخرة عام ٨٢ هـ شهر تموز عام ٧٠١ م)، أسفرت عن انتصار واضح للجيش الشامي وهزيمة ابن الأشعث الذي هارباً إلى سجستان، إلا أن الحجاج لم يتركه وشأنه وأجبر رتبيل على تسليمه له. ولما علم ابن الأشعث بذلك انتحر بأن ألقى بنفسه من فوق القصر. وانتهت حركته بموته وشهد عهد عبد الملك حركات أخرى معادية لحكمه كانت محدودة النتائج، لم تشكل خطراً جدياً على مصير الخلافة، ولم تترك أثراً على المجتمع الإسلامي آنذاك، أثارها قساوة الحجاج وسياسته الاقتصادية، نذكر منها حركة عبد الله بن الجارود، وحركة الزنج في البصرة، وخروج قبائل الأزدي في عمان وهكذا. ثابر عبد الملك، وجاهد لتوطيد دعائم الدولة الإسلامية تحت قيادته ونجح في ذلك نجاحاً فائقاً، ومن هنا استحق عن جدارة لقب موحد الدولة الإسلامية أو المؤسس الثاني لدولة الخلافة الأموية بعد معاوية مؤسسها الأول. وعقد ابن الأشعث قبل تحركه باتجاه العراق هدنة مع رتبيل ليكون أكثر حرية التصرف، وليؤمن خط الرجعة له. وتضمن الاتفاق بين الرجلين أنه إذا انتصر على الحجاج فسيمنح رتبيل إعفاء من دفع الجزية طالما بقي في السلطة، أما إذا حدث العكس فإن رتبيلسيو من له ملجأ لديه . ولما بلغ الحجاج خير خروج ابن الأشعث، انزعج انزعاجاً شديداً، وراح يترصد زحفه على مضض، خاصة وأنه يعاني من قلة التجهيزات. لذا طلب مدداً من دمشق على وجه السرعة ، ثم تلقى أولى هزائمه في تستر في إقليم خوزستان ، في(شهر ذي الحجة عام ١ هـ / شهر كانون الثاني عام (٧٠١ م) ، فترجع إلى الزاوية بالقرب من البصرة.كانت أولى ثمرات هذا الانتصار الذي حققه ابن الأشعث دخوله البصرة حيث بايعه أهلها، لكن الحجاج انتصر في الزاوية في شهر محرم عام ٨٢ هـ / شهر شباط عام ٧٠١ م)، واضطر ابن الأشعث إلى مغادرة

البصرة، وعاد الحجاج إليها . ويبدو أن ابن الأشعث جدد انتصاراته التي تزايدت ودخل الكوفة ثم غادرها إلى دير الجماجم حيث أقام معسكره في حين نزل الحجاج دير قره بانتظار وصول النجدات من الشام. كان الخليفة عبد الملك، في غضون ذلك، على اتصال دائم بالأحداث المقلقة في العراق وأبدى مخاوفه من ازدياد تدهور الأوضاع إلى درجة تفقد معها الخلافة زمام الأمور. وبناء على نصيحة مستشاريه، أرسل إلى ابن الأشعث وفداً يحمل الاقتراحات التالية، بهدف حل هذه القضية عزل الحجاج عن العراق واستبداله بـ محمد بن مروان . المساواة في العطاء بين أهل الشام وأهل العراق . تعيين عبد الرحمن بن الأشعث على أية ولاية يختارها في العراق .